أيام عز الدين

تأليف

خالد الطبلاوي

رسوم

عبير النحاس

مبدعون للنشر والتوزيع

نحو أدبٍ راقٍ

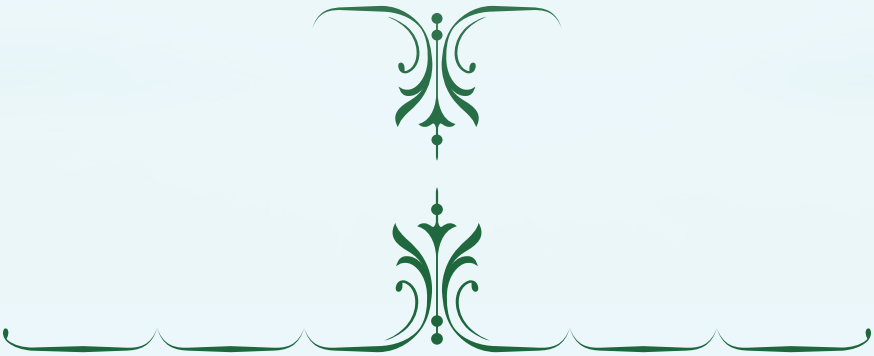

الإهداء

إلى جيل العزة والحرية

جيـل الأمـل المنشـود

المقدمة

أحبابي

كثيرٌ من عظمائنا قد لا نعلم سـيرتهم ومسـيرتهم. وفي هذه الصفحات أسـوق لكم قصة بطلٍ من أبطال المسـلمين، قدم ماله ونفسـه فداءً لدينه وأمته، وما أحوجنا أن نطالع سـيرة هؤلاء الرواد، الذين كانوا مشـاعل في الظلام تهدي السائرين على الطريق.

إنَّ القـدوة الحسـنة من أهـم الروافد التـي تجعلكم تسـيرون على درب العظمـاء المخلصين، فعيشـوا مع عز الدين وبطولاتـه وآثاره الخالدة، مع أطيب الأمنيات وأخلص الدعوات بالتوفيق.

خالد الطبلاوي

٢٠١٨/١١/٢٥

عـز الدين

في قرية جبلة بقضاء اللاذقية بسـوريا عام ١٨٨٢، كان الشيخ عبد القادر يقطع عرصة الدار ذهابًا وإيابًا في قلقٍ شـديدٍ، كلما اشتدت صرخات زوجته ازداد همًـا وألمًـا لا يخففهما عنه إلا ما كان يردد من ذكر الله، وبعد سـاعاتٍ عصيبةٍ، اختلط صوت أذان الفجر بصوت المولود الجديد.

خرجت إليه القابلة حاملةً في يدها المولود تبشـره به، فسـجد الشيخ عبد القادر شـكرًا لله، ونظر إلى السـماء وهو يحمل الوليد برفقٍ قائلاً:

- اللهم لك الحمد والشكر، اللهم إني نذرت لك هذا الغلام، فاجعله من العلماء، واحشره مع الشهداء واجعله عزًا للدين، وقد سميته محمد عز الدين.

وبالرغـم من اسـمه المركـب، إلا أن هذا الطفـل المبارك اشـتهر بيـن الناس بعز الدين، وأقبل الشـيخ عبد القادر وزوجته على رعاية الصغير، وتأديبه وتلقينه كل ما يسـتطيع عقلـه الصغيـر أن يفهمه، وكانـت البيئـة تسـاعد على ذلـك، فقد كان الشيخ عبد القادر من أهل القرآن،

وكان يعمل محفظًا فــي مكتبه الذي كان يملكه، فكان عز الدين ينهل من القرآن كالظمآن الذي يُعــرض عليه الماء حتى أتم حفــظ القرآن في سنواتٍ قلائل.

وأراد اللــه أن يغمــر هذه الأســرة الصغيرة بالسعادة، فوهب لعز الدين أخاه فخر الدين، فآنس غربته، وبدد وحشــته، وأقبل عز الدين علــى أخيه الذي يصغره بســنوات يحنو عليه حنو الأب ، فســاعد أباه في تحفيظ فخر الدين القرآن الكريم.

وكان لعز الدين شــغفٌ شــديدٌ بطلب العلم، فكان يطوف على العلماء يتشرب منهم العلم ، كما يرشف النحل من رحيق الزهور، وكان أبوه سعيدًا بذلك وكان يردد دائمًا:

لقــد نذرتــه للــه ولا أحــب أن يكون نذري إلا طاهرًا.

وأحــب النــاسُ عــز الدين حبًــا جمًا لاختلاطه بهم، وحســن خُلقــه وإقباله على العلم.

وفي أحد الأيام دخــل عز الدين على أبيــه عائدًا من الــدرس، وأخبــره بأن الشــيخ يريــد لقاءه، تحير الشــيخ عبد القــادر في أمره! ماذا يريد منه أســتاذ

عز الدين؟ هل أســاء الولــد الأدب أثناء طلب العلم؟! هل أغضب أستاذه؟

وحيرتــه الظنــون فلم يصبر الشــيخ عبد القــادر فدق باب الشــيخ صالــح بعد صلاة المغــرب، فرحب به الشــيخ ترحيبًا أزال عنه ظنون السوء، وبعد أن لاطفه نظر إليه بشفقةٍ قائلًا:

- يــا أبا عز الدين إني أعلــم حالتك جيدًا، وأعلم أنَّ تكاليف التعليم باهظةٌ، ولكنها خســارةٌ كبيرةٌ ألا ينهل ولــدك عز الدين من علم شيوخ الأزهر الوفير، فهو طالبٌ نجيبٌ وقد أعطيته كل ما عندي.

فبدت الحيرة والســعادة معًا على وجه والد عــز الدين الذي ما لبث أن قال للمعلم:

- والله يا شــيخ صالح ؛ لو بعت دمــي ليصبح ولدي من العلماء لكنت أعظم الناس ربحًا.

رجع الشــيخ عبد القادر إلــى البيت مهمومًــا ولكنه لم يُبد شــيئًا، وقطع ليله فــي التفكير وإن تظاهــر بالنوم، ثم خرج علــى أولاده بــرأيٍ تناوله معهــم على الإفطار مستشــيرًا كما عودهم فقال:

- اســمعوا يا أحبابــي؛ أنتــم تعلمون أن مــداد العلماء يوزن بدماء الشــهداء، وقد صرت يــا عز الدين في الرابعــة عشــرة من عمــرك، وأنت يا فخــر الدين

بلغت العاشرة، وقد حباكما الله الكريم بحفظ كتابه والإحاطة باليسير من سنة حبيبه ﷺ وأرى أن ترحلا إلى مصر لاستكمال طلب العلم في الأزهر الشريف على شيوخه الأجلاء.

تبادل الولدان وأمهما نظراتٍ ممزوجةً بالفرحة والدهشة والحيرة، دهشة المفاجأة، وفرح استكمال العلم وحيرة تدبير الأمر، فليس لديهم دخلٌ سوى أجر تحفيظ القرآن! فكيف بتكاليف السفر والتعليم؟!

ولم يُطل الوالد الصمت فقال:

- لا تحملوا همًا؛ فقد قررت بيع المكتب، وممارسة أعمال التحفيظ في المنزل.

وهنا قال عز الدين في غضبٍ هذبه الحياء:

- عفوا يا والدي؛ لن يحدث هذا أبدًا، ويكفينا ما حصلنا من العلم، فلن يكون تعليمنا على حساب راحتك وراحة أمي.

وأيده فخر الدين قائلًا:

- صدقت يا عز الدين، وأي علمٍ نطلبه إن لم نتخلق بالإيثار وبر الوالدين؟

وأصرَّ الوالد وأصر عز الدين وأخوه، واحتدم بينهم النقاش فقطعته أم عز الدين وعيناها تلمعان، والبسمة ترتسم على وجهها كم يملك دعوة سعدٍ

المستجابة أو مُلك سليمان عليه السلام فقالت:

- حنانيك أبا عز؛ لا تغضب من ولديك لهذا الوفاء الجميل؛ وأنت على حق فقد حان الوقت ليستكملا طلب العلم بالأزهر، ولن تبيع مكتب التحفيظ.

نظـر الجميع إليها في عجبٍ، وهي تدخل تحت سـريرٍ بالحجرة ثم تُخرج صندوقًا وتضعه بينهم قائلة:

- هـذه خبيئة الخير التي اسـتأذنتك فيها يـا زوجي الحبيب منـذ ولادة عز الدين، فكنت أبيع كل يوم بعض البيض وأضع ثمنه في هذا الصندوق، ثم ضاعفت عدد البيض بعد ولادة فخر الدين وقد حان الوقت للانتفاع بخبيئة الخير.

نظـر الجميع إلى الأم بحبٍ وإكبار، وانكب الولـدان يقبلان يديها ورجليها في اعترافٍ جميل بالجميل.

وحان وقت الرحيل وودع الأهلُ والأقاربُ والأصحابُ عزَّ الدين وأخاه، وامتزجت دموع الفرح بدموع الفراق، ودخل عبد المالك ابن عمهما فودعهما قائلًا:

- اعلمـا أن خلفكما هنا مـن ينتظر علمكما، فاحرصا على أن تنقلا لنا كل ما تتعلمان من علوم الدين في الأزهر.

تحركت القافلة حتى غابت عن الأعين، بينما القلوب تلتفت ، والعيون تعانق كل مـا تـراه من معالم بلدة جبلة مـن جمادٍ ونباتٍ وبشـرٍ وحيوانٍ، واحتفظ الغلامان بآخر وصايا الوالدين وهي: تقوى الله في السر والعلن.

قطعـت القافلـة بعض الطريق، وتملك عز الدين شـعورٌ غريـب أنها المرة الأخيرة التي يرى فيها والديه .

وصل عـز الدين وأخـوه إلى القاهرة، فأحس أنها شـقيقة دمشـق، وكأنه

ترك أمه ليقيم عند خالته الحنون، واســتأجر هو وأخوه حجرةً صغيرةً ليقيما فيهــا قريبًا من الأزهــر، ولم يصبر عز الدين فرفض أن يقضي اليوم الأول في الراحة من وعثاء الســفر، فأخذ يستحث أخاه فخر الدين على الذهاب للجامع الأزهر لرؤيته والتعرف إلــى العلماء، ولما نظر إليه فخر الدين متعجبًا بادره عز الدين قائلًا:

- يا فخر الدين؛ تعلم جيدًا أننا لم نترك أهلنا ووطننا لنرتاح هنا، ولكن لنجد فــي طلب العلم، فليكن الهــدف أمامك واضحًا حتى لا نضيع الوقت فيما لا فائدة فيه.

وراح عز الدين وأخوه يزاحمان العلماء بالركب، يبكران بالحضور والالتفاف حول شــيخ العمود، ويدونان كل ما يقوله من فوائد، وكان عز الدين أكثر من أقرانه فهمًا ومحاورةً وحرصًا على ألا يفوته شــيءٌ من علم مشــايخه، إضافة إلى ما تميز به من توقير العلماء وحسن معاملة الزملاء فأحبه الجميع .

وكان عز الدين مهتمًا بالحركة الوطنية في وجه الاســتعمار والتي نشــطت بعد التآمر على حركة أحمد عرابي وفشلها، وكان يسأل عن أخبار المجاهدين حتى إن أحد العلماء أعجب به وقال لأخيه فخر الدين يومًا:

- أرى في أخيك هذا مقوماتِ وملامحِ شخصيةِ قائدٍ عظيمٍ.

فرد عليه فخر الدين قائلًا:

- واللــه يا ســيدي إنــي لأرى من أمره عجبًــا، وكثيرًا ما أســمعه وهو يصلي بالليل، ويبكي سائلًا الله أن يرزقه الشهادة في سبيله .

ومرت الســنواتُ في مصر كأنها طيفٌ، حصل فيها الأخوان على الشــهادة الأهلية وقررا العودة إلى ســوريا، فقد اشــتد بهما الشــوق إلى الأهل والوطن، فودعا الأســاتذة والزملاء الذين كانوا لهما الأهل بعد الأهل، وقد تأثرا في هذه

السنوات بالعشرة الطيبة وبمن لقيا من العلماء الأجلاء مثل الشيخ محمد عبده وغيره من العلماء.

ولما عاد عز الدين إلى سوريا اجتمع عليه حزنان، حزن فقد الأبوين وحزن الأوضاع المتردية في سوريا، فقد سيطرت طبقة الأغنياء على الأراضي ، وسخرت الناس للعمل فيها، وظلمتهم ولم تعطهم أدنى الحقوق الإنسانية، وقد اجتمع على الناس من قيود الجهل والفقر ما يقتل أي فكرة تنبت عن للمقاومة.

تشاور عز الدين وأخوه وابن عمه مالك، وبعض الشباب الذين يُرجى منهم الخير في هذا الأمر، فرأوا أن الغمة لن تنكشف إلا بالعمل الجاد، فلابد من تعليم الصغار ومحو أمية الكبار وتوعية الناس وتبصيرهم بأمور دينهم، وكان عز الدين أولهم تطبيقًا لما اتفقوا عليه، فكان يعمل صباحًا في مكتب التحفيظ، ويساعده أخوه في تعليم الأطفال القراءة والكتابة والضروري من الفقه والآداب والأخلاق، وفي المساء كان عز الدين يُشارك في محو أمية الكبار، بالإضافة إلى دروس العلم التي كان يُلقيها في المساجد مثل مسجد إبراهيم بن أدهم وغيره من المساجد، ولم يكتف بذلك بل جعل من خطبة الجمعة التي كان يُلقيها بمسجد المنصوري مؤتمرًا لمحاربة الظلم والفساد، حتى صار عز الدين خطيب مسجد المنصوري علمًا على محاربة الفساد والمفسدين، يسعى إليه الضعفاء يطلبون منه النصرة إذا وقع عليهم الظلم.

وذات يوم من الأيام عام ١٩١١م كان عز الدين يلقي درسًا بعد صلاة الجمعة في مسجد المنصوري، وقد التف حوله كثيرٌ من الشباب، وبينما هو مستغرقٌ في الشرح إذ دخل عليهم المسجد نذيرٌ مبينٌ أفزع الناس فطار

صوابهم لما سمعوا من الأخبار.

لقـد جاءهم بخبر دخول إيطاليا واسـتعمارها أرض ليبيـا، وقتلِ كثيرٍ من الرجال والنسـاء والأطفال، فاشتدَّ غضبُ عز الدين هو ومن معه وحزنوا حزنًا شـديدًا، ولكن عز الدين لم يدع الحزن يضيع عليه الفرصة، فقد التف الشباب المؤمن من حوله، فراح يوجه هذا الحب لخدمة الإسلام.

قـام عز الدين فيهم خطيبًا وراح يشـرح حكم الدفاع عن بلاد المسـلمين ، وقال قولته الشهيرة:

- أيهـا النـاس؛ هذه ليبيـا تناديكـم، وإخوانكم المسـلمون فـي انتظاركم، والرسول ﷺ يقول «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا».

فقـام الناس وكأن عيونهم البـرق وأصواتهم الرعد، وخرجوا إلى الشـارع ألوفًا غاضبين، يهتفون ضد إيطاليا:

- يا رحيم يا رحمن؛ أغرق أسطول الطليان.

وكان عـز الدين دائما يؤمن بالعمل المثمر، فلـم يكتفِ بالمظاهرات ، ولكنه فتح باب التبرع بالمال والنفس، فأقبل إليه الرجال شبابًا وشيبة، وكأنهم يرون الجنة رأي العين أو يشمون ريحها من ناحية ليبيا، فكوَّن عز الدين منهم سرية بلغ عددها مائتين وخمسين رجلًا، وحث الناس على تجهيز السرية فاستجابوا بكل ما استطاعوا حتى خلعت النساء الحليَّ ينفقنه في سبيل الله.

وحدث ما لم يكن في الحسـبان، فقد منعتهم السلطات السورية من السفر لنصـرة إخوانهـم، فرجع الرجـال وعيونهم تفيـض من الدمع حزنـا، ولكن عز الدين لم يدعهم للحزن، ورفع من هممهم بقوله:

أيهـا الأوفيـاء: إنَّ من رحمة اللـه بنا إعطاءنا الأجر على قـدر إخلاصنا في

النيــة، ونيــة المرء خيرٌ من عمله، فلا تهنوا ولا تحزنــوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، ولســوف أرحل مع من يمثلكم إلى ليبيا وأســلِّم البطل عمر المختار وإخوانه هذه الأموال، وأبلغهم خبر نصرتكم ودعائكم.

وســافر عز الدين ومعه نفرٌ من المتطوعين إلى ليبيا، والتقى عمر المختار وأصحابه، وســلموهم تبرعات أهل سوريا وأبلغوهم سلامهم ودعاءهم، ورجع عز الدين إلى ســوريا، فقد كان على موعدٍ مع همٍ جديد وكأن هموم الإنســان تأتي على قدر همته، فقد هجم الفرنسيون على سوريا واحتلوها، فكان خيار المقاومة -الذي ليس دونه خيارٌ- هو المســيطر على الموقف فقد كان منطق عز الدين ومن معه:

والله لن نُذبح أبدًا ذبح الشاة ولكن نموتُ كالأسود.

وراح عــز الدين يقطع بلاد اللاذقية طــولًا وعرضًا يحرض الناس على قتال الأعداء، ويبصِّرهم بخطر الاحتلال، وشــد أزره في ذلك جمع من العلماء منهم محمد الحنفي وهو مصري الأصل، وبالطبع قام معه أخوه فخر الدين وابن عمه عبد المالك الذي كان ذا خبرة عظيمة في تدريب المقاومين، فكونوا مجموعات لمحاربة الاحتلال الذي ضاق بعملياتهم الجريئة التي أذاقته الذلَّ والهوان.

بالغ الاحتلال في محاولة القضاء على هذه المقاومة الباسلة، فكان يقصف ويحرق القرية التي يعلم أن الشــيخ نزل بها، ولم يجد الشــيخ بدًا من الرحيل

عـن هذه المنطقة رحمةً بأهلها الضعفـاء، فأعطاهم مثلًا في الإيثار فباع بيته وأنفقه في سبيل الله وانتقل ومن معه من قريته الساحلية إلى قرية (الحصة) الجبلية ذات الموقع الحصين حيث ساعدوا المجاهد عمر البيطار في ثورة جبل صهيون عام ١٩١٩-١٩٢٠ التي أزعجت الاحتلال الفرنسي وأقضت مضجعه.

لم يدع الاحتلال حيلةً إلا ولجأ إليها لإغراء عز الدين واسـتقطابه، فأرسـلوا إليه مع قريبٍ له وعدًا بالعفو عنه ومن معه، وأغروه بالمنصب والأموال، لكنه أبى وقال:

إنه جهاد وإنها حياة واحدة فإما نصر وإما استشهاد.

فطـار صوابهـم، فحكمـوا عليـه بالإعـدام غيابيًـا، وضيقوا عليـه الخناق وحاصـروه حتـى اضطر وكثيرٌ ممن معـه إلى الانتقال عبر لبنـان إلى حيفا بفلسـطين، فوقـف عز الدين على آخـر مرتفع جبلي يمكنه مـن خلاله رؤية أرض سوريا، وراح يكحل عينيه برؤيتها ويستنشق هواءها مرددًا في نفسه:

والله ما رحيلنا عنك يا سوريا بهيِّنٍ.

كانت حيفا في ذلك الوقت تمثل الملاذ الآمن لآلاف الفلاحين الذين فروا إليها من بطـش الاحتلال الإنجليزي، وترويع العصابات الصهيونية، فبدأ عز الدين – الـذي طلق الراحـة طلاقًا لا رجعة فيه – خطته التي اكتسـبها من مقاومة الاحتلال الفرنسي في بلاده، فعمل مدرسًا في مدرسـة البـرج الإسـلامية، ثم مأذونًا شرعيًا بمسجد الاستقلال الـذي بادر ببنائه من خلال حملة تبرعات قادها بنفسه، وكان يمحو أميـة الفلاحين ويعلمهـم أمور

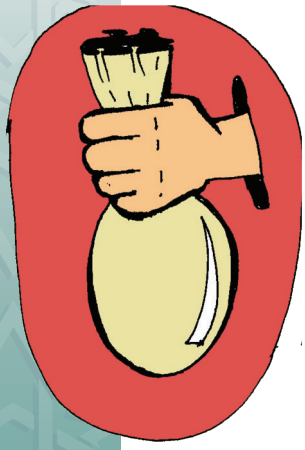

دينهـم، وقد أعطته وظيفته كمأذونٍ شـرعي الفرصة لدخول بيوت النـاس والتعرف إلى أحوالهم ومشـاركتهم في الأفراح والأحزان، فكانوا يأنسون به ويستشيرونه في معظم أمورهم.

وإذا كانـت الشـجرة طيبـةً كانـت الثمـار طيبـة، فالتحق عز الدين الرجل الرباني بجمعية الشبان المسلمين، ثم أصبح رئيسًـا لها عام ١٩٢٦م ، وقـدَّم من خلالها الخير الوفير لأهل حيفا، ولما اسـتوت الأمور أخذ عز الديـن يعد الناس لمقاومة الاحتلال ويدعوهم إلى الوحدة ونبذ الفرقة، وكان يقول:

- إن الكلاب الضالة قد اجتمعت عليكم لنهش لحومكم ومقدسـاتكم، ولا أقل من أن تكونوا يدًا واحدةً لدفعها.

ونشـط عز الدين ومن معه في المساجد يشـرحون للناس آيات النفير في سبيل الله وإسقاطها على الواقع حتى عُرفوا في المساجد والمحافل.

وأراد عـز الدين أن يكـون الهدف محددًا والرؤيةُ واضحةً منـذ البداية، فحدد للناس عدوهم ألا وهو الاحتلال الإنجليزي والوجود الصهيوني في فلسطين حتى لا ينشغلوا في معارك جانبية ويضيع الجهد سُدى.

وبعـد أن أعـد عز الديـن النـاس إيمانيًا ونفسـيًا لمقاومة الاحتلال قابلتهم مشـكلة كانت كالصخرة تسد عليهم الطريق.

فقـد كان هو وأصحابه يرون أنه لابد من المقاومة المسـلحة للعدو حتى يشـعر بالخطر ويرحل، وأنهم يحتاجون إلى الرجال والمال لتحقيق هدفهم، أما الرجال فقد تطوعوا، فمن أين يأتون بالمال لتجهيز الرجال؟

وهنا قام محمد الحنفي وكان صورةً رائعة للمجاهد المخلص قائلًا:

- دعوا لي هذا الأمر.

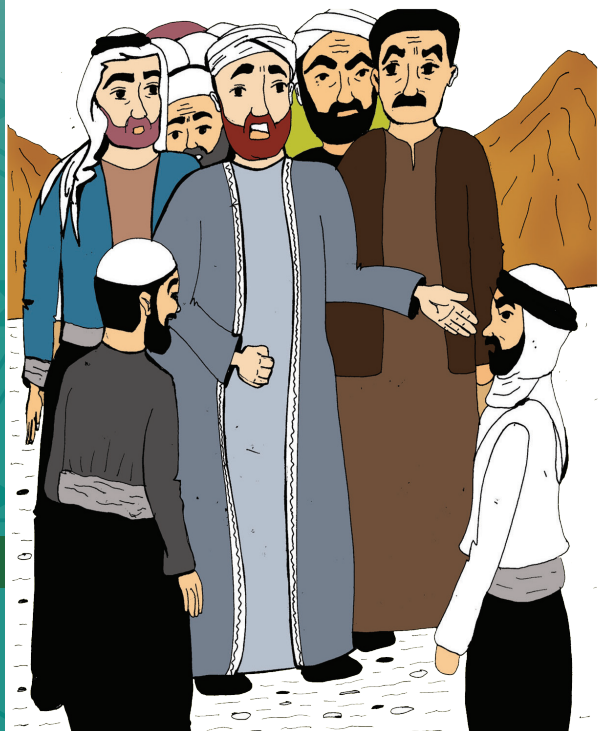

فأخـذ فريقـا مـن الدعـاة وطـاف بهـم علـى الفلاحين وأرباب الحـرف والمهن فقال لهم:

- إن رسـول الله ﷺ لم يُبق لنفسـه ولا لأهلـه شـيئًا، وأنفق هو وأصحابه كل ما يملكـون لنصـرة دين الله، ولقـد رأيتُ بعيني الشـيخ

عز الدين يبيع بيته لينفقه في سـبيل الله، ولم يبق لديه شيءٌ فماذا ننتظرُ أن يبيع؟!

فـكان لكلماته صدى فـي الآذان ووقعٌ في القلوب، وراحـوا يقتطعون من أقواتهـم لينصروا الحـق مرددين عبـارة حفظوها عن عز الديـن: إن الجهاد رفيقه الحرمان.

وكانت وسـائل الحركة الجهادية في فلسـطين في ذلـك الوقت محصورةً فـي المؤتمرات والمظاهرات السـلمية، فكان عز الدين ومـن معه أول من بدأ المقاومة المسـلحة ضد الإنجليز والصهاينة، فكوَّن مجموعات مسلحة سرية لا يتعدى عدد المجموعة خمسة أفراد، وكان لكل مجموعة منها وظيفة، فهذه وحدة الدعوة بقيادة أخيه فخر الدين، وهذه وحدة الاتصالات السياسية بقيادة محمـد الحنفي، وهذه وحدة الاسـتخبارات يقودها ابن عمـه مالك، أما وحدة

التدريب فكانت تخضع لقيادته مباشرةً.

وذات يوم عام ١٩٢٩م وبينما الشـيخ عز الدين غارقٌ في التفكير، إذ دخل عليه محمد الحنفي وأخوه فخر الدين على عجلٍ فقال فخر الدين:

- يا شيخ عز؛ إلى متى ننتظر؟ إنَّ ثورة البُراق تهدر في وجوه المحتلين، ولم تهدأ بمرور الوقت، فلماذا لا ننتهز الفرصة فننقض على أعداء الله؟!

فسكت الشيخ عز الدين برهةً ثم قال:

- يـا إخواني لم العجلة؟ علينا الانتظار حتى يتم تدريب الرجال، فأنا لا أريد ان أقدمهم لقمةً سائغةً لأفواه المجرمين.

واقتنع فخـر الدين ومحمد الحنفي بهذه النظـرة الثاقبة، وبعد تدريبٍ في الأحـراش والأماكـن النائية انطلقت هـذه المجموعات في عمليَّـاتٍ ليليةٍ على ثكنـات الإنجليز فتدمرها تدميرًا، ثـم يعود كلٌ منهم ليبيت في بيته ، حتى إن أسرهم لم يعرفوا متى خرجوا ومتى عادوا .

وأوجعت هـذه العمليات ظهور الإنجليز وقلـوب الصهاينة الذين دبَّ فيهم

الرعب فراحوا كعادتهم يتسولون السلاح من الشرق والغرب، حتى فاح خبر قدوم شحنةٍ كبيرةٍ من السلاح لليهود، فأدرك عز الدين أن الأمر أخطر من أن تواجهه هذه المجموعات الصغيرة فخطب خطبته الأخيرة في مسجد الاستقلال فألهب حماس الناس وهو يصدع في عزة:

- أيها الناس؛ لقد تعلمتم آيات الجهاد وفهمتم معانيها وعلمتم أحكامه، فقوموا وجاهدوا اليهود، اللهم هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

ثم أخرج سلاحه الشخصي من بين طيات ملابسه وأشار به وهو يقول:

- من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليكن معه مثل هذا ليدافع عن دينه ووطنه ونفسه وأهله.

وما أن جهر الشيخ عز الدين بدعوته لقتال الإنجليز والصهاينة حتى شدد الاحتلال رقابته عليه في حيفا، فقرر الانتقال إلى الريف حيث يعرفه معظم الناس هناك منذ عمل مأذونًا شرعيًا وخطيبًا وداعيةً، فنزل بقرية كفر دان التابعة لمنطقة جنين، ثم أرسل الرسل إلى أهل القرى ليشرحوا للناس أهداف الثورة، فتحمَّس الناس وتطوع منهم عددٌ كبيرٌ بالمال والنفس، وأخذ أصحاب عز الدين يُعدون الناس حتى حدث أمرٌ عظيم.

فقد جاء الخبر أن الاحتلال والصهاينة قد بثُّوا عيونهم في كل القرى لرصد

الشــيخ عز الدين ومن معه، خاصةً بعدما رفعوا شــعار «إما نصر وإما استشهاد».

وفي أحد الأيام دخل أحد أصحاب عز الدين عليه مسـرعًا فقال:

- هيا يا شــيخ عز فقد رتبت لك الأمور؛ أسرع فإن العدو على الأبواب.

كان الاحتــلال قــد علم بمكان الشــيخ في قريــة «البارد» فنصبوا له كمينًا يوم ١٥ نوفمبر عام ١٩٣٥م ، ولكن صديقه هذا قد أعد للشــيخ وأصحابه الــدواب ودلهم على طريقٍ مهجور، فاستطاع الشــيخ أن يهرب منهم ومعه خمسة عشر رجلًا فتوجهوا إلى قرية الشيخ زيد.

ولكــن آفــة الخيانــة دائمًــا تســعى لإعطــاب ثمرة المقاومــة، فــدلَّ بعــض الخونة الإنجليــز على مكان الشــيخ وأصحابه، فحاصروهم بقوة بلغت أربعمائة جندي مسلحين بأحدث الأسلحة في عصرهم.

حاول الأعداء كسر همة الشيخ وقتل روحهم المعنوية فنادوا عليهم:

- إن الاستسلام هو الطريق الوحيد للنجاة.

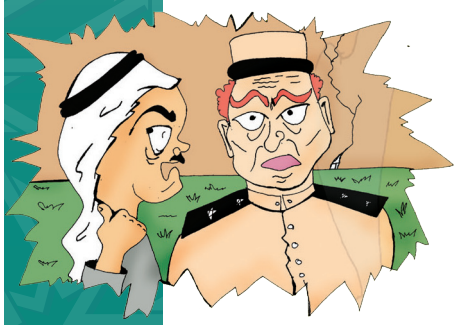

فرد عليهم الشيخ ورفاقه:

- وإن الشــهادة هي طريقنا إلى الجنة؛ فإما نصر وإما استشهاد .

وكأن الشــيخ ورفاقــه يجدون رائحــة الجنة من وراء

التلال، ويسـمعون أصوات الحور تناديهم، فتهللت وجوههم وهم يسـمعون آخر كلمات عز الدين وكأنهم يرون مقعدهم من الجنة:

- أيهـا الصادقون؛ أعرف أن المعركة غير متكافئـة، فليس المهم أن ننتصر ولكن لنعطي درسًا للأجيال القادمة.

وكأن عـز الدين يرى بنور الله، فكان لاستشـهاده الأثر الأكبر في إشـعال الثورة الفلسـطينية الكبرى عام ١٩٣٦م ، بل سيصبح هو نقطة تحول كبيرة في الحركة الفلسطينية بعد ذلك.

كانـت كلمات الشـيخ في أصحابه أقوى مـن البارود، فزمجروا كالأسـود، وهاجموا قوات الاحتلال فأوقعوا فيهم خمسة عشر قتيلا، واستمر القتال ست ساعاتٍ حتى نفدت الذخيرة ولكن عزيمتهم لم تنفد، فاستشهد عز الدين وهو يرفع المصحف الذي رسم له الطريق منذ طفولته، وسقط أصحابه بين شهيدٍ وأسيرٍ بعد أن أثخنتهم الجراح.

وفي اليوم التالي الموافق الخميس الحادي عشـر من سبتمبر عام ١٩٣٥م كانـت جنازةٌ مهيبةٌ تحمل الشـهداء فوق الأعناق، دماؤهـم بلون الدم ولكنها

بريح المسـك، فصلوا عليهم في مسجد الاستقلال حيث بكت أركانه وجوانبه رحيل الإمام المجاهد.

وخرجوا من المسجد تعلو هتافاتهم: الله أكبر فوق كل الظالمين

ومضت الجنازة كالسـيل تجرف ما أمامها حتى إنها حطمت ثلاث سيارات للإنجليز واسـتغرقت أربع ساعات حتى وصلت إلى المقابر، وفي الأرض التي بارك الله فيها رقد الشهيد عز الدين وسط أصحابه بعد أن دللوا على أقوالهم بأفعالهم.

رحل عـز الدين وما زال تلاميذه إلى اليوم يوقعون الرعب في صدور أعداء الدين، وقد صدق فيه قول القائل:

«رجلٌ ذو همة يُحْيِي أمة»